

سحر البلاغة

وسر البراعة

للشعالبي



وهو كتاب ذو قيمة عالية ، يدل على أن الثعالبي^(٢٤٦) يتمتع برحابة الفكر وسعة الأفق ، وثقافة أدبية ، وهذا الكتاب كان من بين نواذر المخطوطات إلى أن أذن الله له برؤية النور فقيض له الأستاذ / عبد السلام الحوفي فصحه وضبطه ثم نراه ينهض بفهرس للكتاب يثبت أنه صدره بكلمة له وترجمة للمؤلف ، ووصف للنسخة وتصحيحها ، ثم نطالع الكتاب فنراه خلوا مما أخبرنا به ضابط الكتاب ومصحه .

ويبدأ الكتاب بمقدمة للمؤلف يعترف فيها صراحة أنه أخرج بعض ممن سبقوه من الأدباء والبلغاء والشعراء فيقول " فإن هذا الكتاب أخرجت بعضه من غرر^(٢٤٧) نجوم الأرض ، ونكت أعيان الفضل من بلغاء العصر في النثر ، الذين أخرج معظم كتابه من غرر نثرهم ، ودر كلامهم ، وهم كثرة كاثرة من أهل الشام ، والعراق وأهل الجبل وفارس ، وجرجان وخراسان والطارئين عليها .

فمن أهل الشام : أبو الفرج الببغاء ، وأبو محمد الفياض ، ومن أهل العراق : أبو محمد المهلبى الوزير ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن عمه أبو الخطاب وأبو الحسن الموسوى النقيب .

ومن أهل الجبل وفارس وجرجان : أبو الفضل بن العميد وابنه أبو الفتح ، والصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد ، والأمير شمس المعالى قابوس وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو الحسن على بن القاسم القاسانى وأبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى ، وأبو منصور بن المرزيان الشيزارى وأبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى الجرجانى ، ومن أهل خراسان والطارئين عليها : أبو القاسم الإسكافى أبو يحيى الحمادى ، وأبو على الداستانى وأبو أحمد محمد بن اليسع ، والأمير أبو الفضل الميكالى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفتح على بن محمد

^{٢٤٦} - سبقت ترجمته .

^{٢٤٧} - راجع سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي . ضبطه وصحه الأستاذ عبد السلام الحوفي دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط أولى . ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م .



البستى ، وبيدع الزمان أبو الفضل الهمذاني ، وأبو محمد الحسن بن محمد البروجردى ، وأبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبى^(٢٤٨) .

وذلك اعتراف صريح من الثعالبي ، بأن الكتاب لم يكن من وحى قلمه ، ولا من خواطر جنانه ، ولا من بنات أفكاره ، بل كان معظمه من كلام بلغاء عصره ، وغرر نثرهم مع الإسهام بنصيب موفور من كلامه .

ومع ذلك لا نغمت الرجل حقه فهو وإن كان قد استعان بكلام هؤلاء البلغاء والأدباء والشعراء ، بيد أن له فضل التنسيق ، وحسن التأليف وجودة التصنيف ، وروعة الإخراج ، كما أنه دليل حاسم على سعة اطلاعه وغزارة معارفه . وحسن تذوقه للأدب ، وانتقائه العبارة وتخيره لمن استعان بكلامهم واستشهد بأشعارهم كما يذكر الثعالبي أسماء الشعراء الذين جعل بعض أشعارهم حلية لكلامه حيث اختار من ملح نظمهم ما يناسب قوله من أمثال :

أبو الطيب المتنبي ، وأبو فراس الحمداني ، وأبو العباس النامى والسرى الموصلى ، والخالديان : أبو بكر وأبو عثمان وابن سكرة الهاشمى وأبو طالب المأمونى والقاضى التتوخى وأبو نصر بن نباته وأبو القاسم الزعفرانى ، وابن لنكك البصرى ، وأبو داف الخزرجى ، وأبو الحسن اللحام ، وأبو سعيد الرستمى ، وأبو محمد بن مطران الشاشى ، وأبو الحسن الجوهري^(٢٤٩) .

ثم جعل عنوان الكتاب " سحر البلاغة وسر البراعة " . وحقا إن الكتاب جاء مطابقا لمسماه . فإن القارىء لهذا الكتاب لا ريب أنه يستهدى بعبارات القوية . ويعذب لسانه بأساليبه البيانية فى كل موقف من مواقف الخطابة والكتابة وقرض الشعر . ومن ذلك يستبين لنا أنه لا غنية لشاعر ولا أديب ولا لكاتب عن مطالعته أو النظر فيه والإفادة منه.

٢٤٨ - ذاته ص ٥ .

٢٤٩ - ذاته ص ٦ .

ومع استعانتة بكلام غيره من أساطين اللغة . وسدنة البيان وأمرء الشعراء إلا أنه موهوب حيث إنه أضاف إلى كلام هؤلاء مما أفاء الله به عليه من ذكائه وفطانة وعبقرية فذة وأفق رحب . ونسق كل ذلك ونظمه فى عقد من الجمان . يدل دلالة حاسمة على مهارته فى الصوغ وتفوقه فى الصبغ فجاء الكلام سلسا رقيقا . وعذبا رقيقا فيقول :

" فلفقت جميع ذلك ونسقته . وسردته وسقته وأنفقت عليه جميع ما رزقته وعملاته بجهد المخاطر . وكد الناظر وعرق الجبين وتعب اليمين " (٢٥٠)

ثم يتحدث الثعالبي واصفا الكتاب وأنه قام بتبويبه وترتيبه ولم يستعن فى التشبيهات بشيء سوى كلام أهل العصر إلا بكلام قلة قليلة من أمثال : الجاحظ وابن المعتز فيقول : " وبوبته ورتبته وتعمدت فيه لذة الجدة ورونق الحداثة وملاحاة الطراوة . ولم أشبه بشيء سوى كلام أهل العصر اللهم إلا قلائد قلائل من ألفاظ الجاحظ وابن المعتز تخللت أثناءه وتوسطت تضاعيفه . ولم أخل كلمة من كلماته التى هى وسائط الآداب . وصياقل الألباب وما تشتهى أنفس الأدباء . وتلذ أعين الكتاب من لفظ فصيح أو معنى بديع أو تجنيس أنيس أو تشبيه بلا شبيه أو تمثيل بلا مثيل أو عديل أو استعارة من الحسن مستعارة أو طباق ذى رونق باق (٢٥١) .

ويواصل الثعالبي حديثه عن مؤلفه مبينا انه أخرجه فى نسختين أهدى إحداها إلى الشيخ الرئيس أبى سهل أحمد بن الحسن الحمدونى ، وأهدى النسخة الأخرى إلى صاحب الجيش أبى عمران موسى بن هارون الكردى ثم جمعهما فى نسخة واحدة جمعت بينهما وأخذت بأطرافهما ، وفيها زيادة طريفة مع التنقيح والتهذيب ، ويبدو أنه أهداها إلى خزانة الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى (٢٥٢) .

٢٥٠ - ذاته ص ٣ .
٢٥١ - سحر البلاغة وسر البراعة ص ٣ .
٢٥٢ - ذاته ص ٤ " بتصرف " .

والكتاب ينتظم أربعة عشر كتاباً يتضمن كل كتاب منها أبواباً وإليك بيانها :

- ١- كتاب ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه . ويتكون من عدة أبواب عنون لها الثعالبي بالعناوين التالية . مقدمات ، غرر التحاميد ، وصف الحمد ، عادة اله جل ذكره ، صنع الله ولطفه ، ذكر الله تعالى فى أثناء الكلام ، ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه مع الإفصاح ، ذكر الآل ، ذكر القرآن .
- ٢- كتاب الأزمنة والأمكنة وما يتصل بها ويشاكلها . وأبوابه : فى الربيع وإقباله ، فى النسيم ووصف أثره ، فى وصف الرياض ، فى وصف البساتين ، فى غناء الطييار إلخ
- ٣- كتاب أحوال الإنسان من لدن صغره ونمائه ، إلى كبره وإنهائه ومن أبوابه : ذكر الصبية الصغار ، نعت محاسن الجوار ، ذكر الشاب الغض الشباب . وخط الشيب أو انتشاره وهكذا .
- ٤- كتاب الطعام والشراب وما ينضاف إليهما ويقترن بهما وأبوابه فى الفواكه والثمار . ذكر الجوع . وصف الموائد . وصف ألوان من الحلوى ، ذكر النهم الأكل . فى الكناية عن الشراب ، وصف الشراب إلخ .
- ٥- كتاب وصف النظم والنثر وأصحابهما وآلاتهما وأدواتهما . ومن أبوابه : وصف حسن الخط فى سرعة الكتابة . ذكر البلاغة والبلغاء . زلافة اللسان والفصاحة . وصف النظم والنثر معاً . وصف الشعر . وصف الشعراء .
- ٦- كتاب الممدوح والأثنية وما يجرى مجراها ويأخذ مأخذها . ومن أبوابه : المدح بشرف الأصل وكرم النسب . الجود والكرم . الجمال وحسن الصورة . العلم والأدب إلخ .
- ٧- كتاب المساوى . والمقابح وما يدانيها ومن أبوابه : اللؤم والخسة . فى البخل - القبح والدمامة والحقارة . القلة والذلة . إلخ .

٨- كتاب العيادة وما يجانسها ومن أبوابه : ذكر التشكى والمرض . اشتداد العلة وسوء الظن بها . أدعية العيادة .

٩- كتاب التهاني والتهادى وما ينخرط فى سلوكها ويأخذ مأخذها . ومن أبوابه : ألفاظ التهنة بمولود . ذكر التوأمين . فى التهنة بالبنات إلخ .

١٠- كتاب التعازى وما يليق بها ومن أبوابه : وصف الخبر الهائل المزعج الكناية عن موت الرؤساء والأعزة ... إلخ .

١١- كتاب الإخوانيات وما يأخذ مأخذها ومن أبوابه : ذكر المودة . حسن المخالطة . المنادمة والمؤانسة ، وصف الشوق ، ذكر الوداع ، الأدعية الإخوانية .

١٢- كتاب السلطانيات وما يأخذ مأخذها ومن أبوابه : ذكر الخلفاء ، العدل وحسن السيرة . حسن السياسة وتصريف أعنة المملكة ، ذكر الهزج وكثرة الفتنة إلخ .

١٣- كتاب الشوارد والفوارد وما يشبهها ومن ابوابه : هبوب ريح الإقبال - تباشير النجاح والغنى ، حسن الحال ووفور المال ، ذكر المال الصامت - سوء أثر الفقر والضرب إلخ .

١٤- كتاب الأمثال والحكم وما يحذو حذوها ويتحدث الثعالبى عن هذا الباب فيقول :

" قد اعتمدت بهذا الكتاب الأخير أن يكون غررة كلها مستقلة بأنفسها ، منسوبة إلى أربابها الذين هم أفراد الدهر وأعيان العصر ، فى أنواع النثر وجعلت لكل منهم باباً مفرداً " (٢٥٣) .

وفيه يورد الثعالبى كلاماً فى الأمثال والحكم لنخبة من الأدباء كالأمير شمس المعالى ، وأبى القاسم على بن محمد الإسكافى ، وأبى الفضل بن العميد وأبى محمد الحسن الهلبى الوزير . والصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد وأبى إسحاق إبراهيم

ابن هلال الصابى وأبى القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبى الحسن على بن القاسم
القاسانى . وابى بكر محمد بن العباس الخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى وأبى
الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف بالبيغاء وأبى الفتح البستى ، وأبى النصر
العتبى وأبى الحسين الأهوازى .

نماذج من الكتاب

(١)

ذكر القرآن

حبلى الله الممدود . وعهده المعهود . وظله العميم . وصراطه المستقيم .
وحجته الكبرى . ومحجته الواضحة . هو الواضح سبيله . الراشد دليله . الذى من
استضاء بمصابيحه أبصر ونجا ، ومن أعرض عنها ذل وهوى فضائل القرآن لا
تستقصى فى ألف قيران . حجة الله وعهده ووعيده به يعلم الله الجاهل ويعمل العاقل
وينتبه الساهى . ويتذكر اللاهى بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء
الأمور . من فضائله أنه يقرادائياً ويكتب ويمل فلا يمل . ما أهون الدنيا على من
جعل القرآن إمامه وتصور الموت أمامه طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه ومفتاح
لبه . من حق القرآن حفظ ترتيبيه وحسن ترتيبيه (٢٥٤) .

(٢)

فى النسيم ووصف أثره

زائر وجهه وسيم ، وفضله جسيم . وريحه قد سفر الربيع عن خلق الكريم
ونطق بلسان النسيم وأفاض ماء النعيم . هب النسيم من الكرى وهب على الورى .
وعطر الثرى . جر على الأرض أزره . وحل عن جيب الطيب زرره . نسيم الريح
نسب الروح . قد ركضت خيول النسيم فى ميادين الرياض . يا لك من منظر
جنانى . وماء فضى . ونسيم عطرى . قد حلت يد المطر أدرار الأنوار . وأذاع
لسان النسيم أسرار الأزهار (٢٥٥) .

٢٥٤ - راجع سحر البلاغة وسر البراعة . ط أولى - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م دار الكتب العلمية - بيروت - صححه وضبطه
الأستاذ / عبد السلام الحوفى ص ١١ .
٢٥٥ - ذاته ص ١٤ .



(٣)

فى غناء الأَطيار

الأرض زمردة والأشجار وشى والماء سيوف . والطيور قيان قد غردت
خطباء الأَطيار على منابر الأنوار والأزهار إذا صدع الحمام صدع قلب المستهام .
انظر إلى طلب الأشجار لغناء الأَطيار ، ليس للبلابل كخمر بابل على غناء
البلابل (٢٥٦) .

(٤)

النميمة

لعن الله من يفسد ذات البين ويسعى بالنميمة بين المحبين النمام يحارب بسيف
كليل إلا أنه يقطع ويضرب بعضد واهن إلا أنه يوجع فلان لا يزال ينمنم حلة النمام
وينفت فى عقد المكاره قد هبت سماء نمائم ودبت عقارب مكائده النميمة من سلاح
النساء وحصون الضعفاء (٢٥٧) .

(٥)

فى التهنئة بالبنت

هنأ الله سيدى ورود الكريمة عليه ، وثمر بها أعداد النسل الطيب لديه ،
وجعلها مؤذنة بأخوة بررة ، يعمرن أندية الفضل ، ويعمرن بقية الدهر ، اتصل
بى خبر المولودة كرم الله غرتها ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيرك عند
اتصاح الخبر ، وإنكارك ما اختاره لك سابق القدر وقد علمت أنهن أقرب من القلوب

٢٥٦ - ذاته ص ١٥ .

٢٥٧ - ذاته ص ٨٢ .



وأن الله بدأ بهن فى الترتيب ، فقال جل من قائل : " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور " وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحرى ، أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء . وأم الأبناء ، وجالة الأصهار والأولاد الأطهار ، والمبشرة بأخوة يتناسقون . ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمثل هذى **فضلت النساء على الرجال**
وما التأنيث لاسم الشمس عيب **ولا التذكير فخر للهلال**
(٢٥٨)

ثم نسوق نموذجاً مما استشهد به من كلام غيره كأبى بكر الخوارزمى حيث يقول :

الشكر على الإحسان ، والسلع بإيذاء الأثمان ، الطير واقعة مع مثلها ،
والنفس مائلة إلى شكلها ، الإنكار حيث التناسى ، والتقاضى حيث التغاضى ،
العشرة مجاملة ، لا معاملة ، والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف ، والعشرة لا
تحتل الحساب والصرف والاعتذار فى غير موضعه ذنب ، والتكلف مع وقوع الثقة
عيب (٢٥٩) .